# كلمة الكاتب سمير عطاالله في الذكرى الثالثة لغياب نسيب لحود
# ٢٠١٥/٢/٦

تعرفت إلى نسيب لحود العام ١٩٦٩ يوم هو في السابعة والعشرين وأنا في التاسعة والعشرين. وكان أول انطباع لي ان المهندس الشاب يكبرني في النضوج بأكثر من عقد. اختار اليوم أن اتحدث فقط عن النواحي الشخصية في حياة نسيب، لأنه كان في خلاصة الحياة، مجموعة ميزات تكاد، لولا الكفر، تكون بلا نواقص.

جمعنا لبنان حتى العام ١٩٧٥، ثم قرَّبت بيننا الغربة في لندن وباريس ونيويورك. وهناك تعرفت عن قرب إلى إنسان بالغ التوازن، وكأنه يحسب حياته بين الناس كعمل هندسي. وبدا وكأن غايته اليومية، أو النهائية، هي حفظ المودّات دون تهوّر، ودرء الخصومات من دون تنازل.

في شقته الأولى في لندن، لاحظت أن الاثاث كان من الوان شديدة الهدوء، حتى لا يبدو وكأنه لا يملك أكثر. ثم انتقل من مواجهة "الكارلتون تاور" إلى "الهولند بارك" وظلت الألوان هادئة. ومن "هولند بارك" إلى "بلغرافيا". وبقي الأثاث محافظاً. وذات مرحلة اشترى شقة كبيرة – كالعادة – في بارك افينيو. أفهم الأحياء، لكن الألوان الهادئة رافقته إلى هناك، بعيداً عن الذوق الاميركي، أو ميل الأميركيين إلى المباهات بما قد انجزوا.

لم نعرف مرة إذا كان نسيب لحود ثرياً، أو بالغ الثراء، أو فوق المتوسط الذي نعيش فيه. فقد حرص على أن لا يُطرح عليه مثل هذه الطروحات. ولم يسمعه احدنا مرة، في سهرة أو نُدوة، أو جلسة غداء، يُشير إلى اي عمل من اعماله. فلا الوان المنزل تتحدى الاصدقاء، ولا حجم السيارة، ولا المآدب الراقية المرفقة دوماً بالموسيقى الكلاسيكية. عندما كنا لا نزال في لبنان، كان رفاقه، غالباً، من اهالي بعبدات، العاملين في المهن والاشغال المنتجة العادية. وفي لندن كان رفاقه غالباً من العاملين معه. ولعلنا، سليم نصار وأنا، كنا الاصدقاء الوحيدين في خارج تلك الدائرة، فلم نرى نسيب يوماً منبهراً برجل أعمال، أو طارحاً نفسه على شراكة مع أحد، أو باحثاً عن مناقصة في مكان ما. وكأنما أدب الحياة لا أن تحافظ على السر، بل أن تضبط كل مظهر خالٍ من التواضع.

عدنا تقريباً معاً، إلى لبنان، ولم يتخلّى عن عادة، طالما داعبت غروري الضمني، وهي الاصغاء إليَّ في امور البلد، واحياناً، في شؤون العرب. جعل مكتبه في طابق واحد من مبنى الشركة في سن الفيل، وترك جميع الطوابق الآخرى خالية، لكي لا يُقال أنه قادم إلى لبنان للخلط بين السياسة والمال، أو بين النفوذ والفِرص.

في مطعم صغير قرب مكتبه، التقينا مرة لأكثر من ثلاث ساعات، وطرح، كالعادة، سؤاله النبيل: ماذا يُعمل؟ كعادة المتهورين الذين لايشفون من الرومنسية، تحدثت - ثلاثة ارباع الثلاث ساعات. وقلت له ما خلاصته: أنت اليوم أفضل ماروني سياسي بعد غياب ريمون اده. لقد كان ريمون اده الرئيس الذي لم يركع للرئاسة، غير أنه بقي في الضمير الرئيس الذي لم يجمع اكثرية الأصوات. وإنني اعتقد، بكل اسى، أنك لن تبلغ الرئاسة، لأنك مكوَّن من مواد مضادة للتسويات. لذلك، اتمنى عليك أن تجلس، منذ الآن، في كرسي العميد. فلا تخوض معركة انتخابية، ولا معركة رئاسية، وتكتفي بمعركة القيَّم والرقيّ.

كان جوابه: ربما تكون على حق في الرئاسة. سليم لحود لم يورثنا المال، لكنه ترك لنا ما هو أهم بكثير. لم يستطع أن يترك امانة الجمهورية، لكنه ترك أمانة المتن، وهذه، لاشيء يصرفني عنها. كان جوابي أن المتن مثل الدائرة السابعة في باريس، او مثل دائرة اوكسفورد في بريطانيا، أو مثل برلين، مكوَّنة في النهاية، من الجماهير، والجماهير مهما ارتقت، تخضع دائما لنداء الغوغاء والدهماء، وتنصرف عن أهل المُثل بالسهولة التي تُدير فيها وجوهها من الغرب إلى الشرق.

احزنني وأنكدني أنني لمرة كنت على حق في الجدال مع نسيب لحود. فطالما اقنعني أن الرؤيا عنده، والتبصر عنده، والحسابات الهندسية عنده ايضاً. عندما كنت ازوره في باريس في ايامه الأخيرة، لم يتغير شيء علينا. الأثاث الهادىء، وتوازنات نسيب التي لم يقضها المرض. واحاديثه الحانية وأسئلته عن الاولاد، اللذان ذهبا إلى مدرسة فرنسية واحدة في لندن، وكان من عادته، هو الثري الكبير، أن يذهب بنفسه لمرافقة سليم الصغير، إلى البيت. وأذهب أنا، المتوسط، لمرافقة نصري. وقد تعودنا، منذ بوابة الـ PETITE ECOLE FRANCAISE أن نتنادى "ابا سليم" و "ابو نصري".

عندما توفي نسيب لحود، كتبت أنه آخر العصر الفيكتوري. وكنت اتمنى يومها ألاَّ ينتهي المقال. فكلما تذكرت عاماً في رفقة نسيب، كلما تذكرت اغماراً من القيَم والنبل العفوي. كلما تذكرت صموداً اخلاقياً ادبياً بلا حدود، كلما تذكرت تواضعاً غير مبتذل وكبَراً بلا اي ادعاء، وخطاباً عالياً إلى اقصى ما يمكن.  إنه يعلو الخطاب البشري.

لقد قارنت نسيب لحود بالعميد ريمون اده، الذي كنت مولعاً بشخصيته المترفِّعة، وكان هذا في حياة نسيب. ولكن الآن، وقد تمعَّنت في غيابه، أسامح على القول أن شخصية "ابا سليم" كانت تحمل من الإيجابيات والرؤيا أكثر مما صبر عليه العميد.